﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧﴾ [الزمر: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّناقُضُ في طَبْعِ هـذهِ الجماعةِ الكافرةِ

هذه الآيةُ الكريمةُ مِن تمامِ ما قبلَها: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ [الزمر: 56] الآية، في سياقِ التَّعليلِ للأمرِ بالاتِّباعِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: 55] الآية، فهاتانِ الآيتانِ كائنتانِ في الحديثِ عن أحوالِ الكُفْرِ والشِّرك حينَ يأتيهم العذابُ بغتةً وهم لا يشعرون، فالآيةُ الأولى تُبيِّنُ اعترافَ النَّفْسِ العاصيةِ الكافِرةِ بتفريطِها في جَنْبِ الله، وعظيمَ ندمِها على ما كانَ منها، وعلى تكبُّرِها على الحقِّ، وسُخْريَتِها منهُ، وهذا هو الأصلُ الكائنُ منها عندَ حُلولِ العذابِ بها، ولَمّا كانَتِ النَّفْسُ إذا وقَعَتْ في ورْطةٍ لا تَدَعُ وجهًا محتمَلًا حتَّى تتعلَّقَ بأذيالِه، وتمُتَّ بحِبالِه؛ جاء البيان الإلهيُّ حاكيًا كذِبَها؛ إذ لا يُغْني إلّا الصِّدْقُ: ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَدَىٰنِي﴾: (هدي) أصلانِ، أحدُهما التَّقدُّمُ للإرشادِ، يُقال: هديْتُه الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُه؛ لأرشده، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلك هادٍ، والهدايةُ في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾ مِن الهداية التي جعلَها الله للنّاس، بدعائه إيّاهُم على ألسنة الأنبياء، وإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ، فمعناها: أرشدني، ودلَّني على الحقِّ الذي إذا اعتقدْتُه، وعملتُ به؛ نُعِّمْتُ، ولم أُعَذَّبْ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هدى)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 18.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ مَدَّ يدَيْهِ إلى الله لا يرُدُّهُما صِفْرًا؛ حتَّى يَضَعَ فيهما خيرًا

هذه الآيةُ تُقرِّرُ أنَّ النَّفْسَ العاصيَةَ الكافِرةَ في حالِ إتيانِها العذاب بغتةً انتقَلَتْ مِن موقفِ المُصارَحة إلى موقفِ المُراوَغة، وحمَّلَت مسؤوليَّتها على أمرٍ غيبيٍّ ليس عندَها ولا عندَ غيرِها عِلْمٌ به، وأنَّها تُحاوِلُ تبرئةَ نفسِها، وترجعُ بما هيَ فيه إلى قدَرٍ قدَّرَه الله عليها، وأنَّ الله أراد بها ذلك، ولو هداها، وبيَّن لها الحقَّ الهاديَ إلى النَّعيم؛ لاهتدَتْ، والغريبُ أنَّ قولَها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حقٌّ لا يُنازِع فيه مَن شهِد أنَّ الله حقٌّ، ولكنَّ هذا الحقَّ في منطقِ هذه النَّفْسِ أريد به باطلٌ؛ لأنَّها به تتنصَّلُ مِن الفِعْل الذي اختارَتْه بمحضِ اختيارِها، وأفْضَى بها إلى هذا الموقفِ الذي نتج عن عدم اتِّقائها أسبابَ غضب الله وعذابه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

كلَّ نَفْسٍ تذوقُ هذا العذابَ بغتةً تقول هذه الأقوالَ أو بعضَها

كلمةُ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في هذه الآية والآية التي بعدها: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ حرفُ عطفٍ، وعُبِّر به؛ للدَّلالة على أنَّ النَّفْسَ عندَ نزول ما لا قِبَل لها به، لا تخلو مِن هذه الأحوال وهذه الأقوالِ؛ تحسُّرًا وتحيُّرًا وتعلُّلًا بما لا طائلَ تحتَه، فهي لمنع الخُلوِّ[2].

دلالة المضارعة في قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾:

التَّعبيرُ بـ(أو) والمضارع يجريانِ في فلَكٍ واحدٍ

نَظَمَ القرآنُ القولَ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ اللّاحقة لها؛ إشارةً إلى تكرارِ هذا القولِ وتجدُّدِه مِن النَّفْسِ الواحدةِ؛ حسرةً على ما فرَّطَتْ في جَنْبِ الله، فهو تفصيلٌ وبيانٌ لقولها في الآية السّابقة: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 366.
(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 347.

جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، وإلى تكرارِه وتجدُّدِه مِن أكثرَ مِن نَفْسٍ؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بـ ﴿أَوْ﴾.

دلالةُ تأنيثِ الفعل ﴿تَقُولَ﴾:

في التَّأنيثِ كمالُ تصويرِ حالِ النَّفْسِ المُعذَّبَةِ

أنَّثَ القرآنُ القولَ؛ لتأنيثِ النَّفْسِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ اللّاحقة لها؛ لأنَّ فاعلَ القولِ ضميرُ النَّفْسِ؛ عطفًا على: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ [الزمر: 56]، وفي ذلك إشارةٌ "إلى ضعفِها عن حَمْلِ العذابِ، وغلَبَةِ النَّقائصِ لها"[1]، ففي التَّأنيثِ في نورِ هذه الدَّلالةِ تمهيدٌ لكذِبِ هذه النَّفْسِ على اللهِ في قولها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وتمهيدٌ لِما يُبينُ عن عظيمِ شِدَّةِ العذابِ؛ حتَّى تمنَّتْ هذه النَّفْسُ الرُّجوعَ إلى الدّارِ الدُّنْيا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

دلالةُ تكرارِ: ﴿تَقُولَ﴾، وعدمِ تكرارِ: (أنْ):

سيطولُ ذلكَ العذابُ حتَّى يُقالَ معَه كلُّ هذه الأقوالِ

هذا التَّكرارُ مُؤذِنٌ بأنَّ هذه المواقفَ التي قيلَتْ فيها هذه الأقوالُ مُستقِلَّةٌ، وأنَّ هذه الأقوالَ مستقِلَّةٌ أيضًا، ومع هذا تجدُ حِسًّا مشترَكًا بينها، وتجدُ الحسرة التي كانَتْ رأسَ هذه القرائنِ لها أثَرٌ راسِخٌ يظهره السّياق[2]، وهذا الاشتراكُ أشار إليه القرآنُ بعدم تكرار: (أنْ) النّاصبة، فلم يقل: (أو أن تقول) في صدر الآيتين: [الزمر: 57 - 58]، فالمُكرَّرُ هو القولُ المضارعُ دونَها.

معنى: ﴿لَوْ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

تمنّي ما تعلمُ النَّفْسُ استحالتَه، عذابٌ أليمٌ

كلمة ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ دالَّةٌ على امتناعِ جوابها؛ لامتناعِ شرطِها، ويُقْصَدُ بها في هذيْنِ الموضعَيْنِ معنَى التَّمَنّي، وهذا ظاهرٌ جدًّا، فقد أبْصَرتِ النَّفْسُ الحقيقةَ، بل الحقائقَ، وهي تُعذَّبُ بالعذابِ الذي أتاها بغتةً، فتمنَّتِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 465.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 368.

الرُّجوعَ إلى الزَّمانِ الذي قبلَ زمانِ العذابِ، وهيهات! وأظهرُ منهُ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ ما بعدَها كذِبٌ على اللهِ، والتَّمنّي بـ: ﴿لَوْ﴾ يَزْدادُ المُتمَنَّى فيه بُعْدًا واستحالةً، ممّا يزيدُهم إحساسًا باليأسِ، واستحالةِ تحقُّقِ ما يطلبون حصولَهُ؛ لأنَّ العذابَ نزلَ بهم بغتةً، ولن يُرْفَعَ، وتلك الميزةُ بالتَّمنّي بـ ﴿لَوْ﴾ ترجعُ إلى طبيعة دلالتِها؛ حيث إنَّها حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ.

داعي التَّوكيدِ:

أكَّد القرآنُ مضمونَ جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، ومضمونَ جملةِ: ﴿أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ بكلمة ﴿أَنَّ﴾ – معَ ضميمةِ اسميَّة الثّانية كاملةً، واسميَّة صدرِ الأولى فقط – تصويرًا لكمالِ رغبتِها في هدايةِ اللهِ إيّاها، وفي أنْ يكونَ لها كَرَّةٌ، فالنَّفْسُ لشدَّة رغبتِها في ذلكَ وكمالِ إحساسِها به أخْرَجَتِ المعنَى كما هوَ في داخلِها مُحَقَّقًا ومُؤَكَّدًا؛ وإنْ كانَتْ تعلمُ أنَّ ذلكَ لن يكونَ، فليسَ بَينَ هذينِ الحالينِ تَعانُدٌ.

بقَدْرِ الإحساسِ بالضَّياعِ يَعْظُمُ تمنّي النَّفْسِ الإنقاذَ والرُّجوعَ

نكتةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾:

قدَّم القرآنُ المسندَ إليه على خبرِه الفعليِّ المُثْبتِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ تحقيقًا وتوكيدًا لمضمونِ الجملةِ الحاصلِ بإسنادِ الهدايةِ المُتعدّيةِ إلى ضميرِ النَّفْسِ إلى اسْمِ الجلالةِ؛ لتكرارِ ذِكْرِ المسندِ إليه، فهو مذكورٌ مرَّةً بلفظه ﴿ٱللَّهَ﴾، ومرَّة بضميره؛ إذ فاعل الهداية ضميرُ اسم الجلالة.

لا هادي للأنفس إلّا الله

علَّةُ التَّعبيرِ بالهِدايَةِ:

قولُه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾ خبرُ ﴿أَنَّ﴾، والمقصودُ بهذه الهدايةِ هدايةُ الإرشاد، أي: أرشدني إلى الحقِّ، وبيَّنَ لي طريقَه[1]، فالتَّعبيرُ بالهدايةِ صورَةٌ لكمالِ الإحساسِ بشِدَّةِ العذابِ؛ لأنَّ "الهداية: الدَّلالةُ

يُقابِلون في لُطْفٍ بينَ ما هم فيه مِن شديدِ العقابِ وما يتمنَّونه مِن كرمِ النَّعيم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607.

بلُطْفٍ"[1]، فلو هداهُم اللّه بهذه الصِّفةِ - كما يزعمون كاذبينَ - لَما حلَّ بهم العذابُ بغتةً، يُؤلِمُهم، ويوجِعُهم، ويُهينُهم، بل كانوا في نعيمٍ هادئينَ مُطْمئنّين مُكَرَّمينَ.

دلالة المُضِيِّ في الفعل ﴿هَدَىٰنِي﴾:

يُـزْجِـعُـونَ ضـلالَـهُـم على اللـه في الـزَّمان المـاضي كـذبًـا وافتراءً!

نظَم القرآنُ معنَى الهدايةِ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾؛ لأنَّهم إنَّما يتمنَّونَ هذهِ الهدايةَ في حالِ نزولِ العذابِ بهم، فهُم يتمنَّون حصولَها في الزَّمانِ الذي قبلَ زمانِ هذا العذابِ، أي: في الزَّمان الماضي؛ فجاء التَّعبير بالفعل ماضيًا ليظهر خبيئة نفوسهم وتحايلهم في أنَّهم لم يكن لهم من الأمر شيء، وأنَّ الزَّمان لو عاد للوراء، ولاحظتهم العناية؛ لتغيَّر حالهم، وما كانوا في هذا الموقف الذي لا نجاة منه.

علَّةُ التَّعبير بالكَون الماضي:

المـضـرورُ المُـعَـذَّبُ يُبالِغُ في الاعـتـرافِ؛ رجـاءَ الـقَـبـولِ والانصِرافِ

قولُه تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾، واللّامُ واقعةٌ في صدرِه، وكان مِن الممكن أنْ تقولَ هذه النَّفْسُ: (لاتَّقَيْتُ)، ولكنَّها استعملَتْ الكَوْنِ، فقالَتْ: ﴿لَكُنتُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جملةَ الشَّرط: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ لو تحقَّقَتْ - وهيَ في الدُّنيا في الزَّمان الَّذي قبل زمان إتيانِ العذابِ بغتةً - لكانَ مِن ديدنِها ومِن طبْعِها التَّقوى، فكانَتْ تُلازِمُ سُبُلَ التَّقوى لزومًا؛ كأنَّها مَطْبوعةٌ على التَّقوى وعلى كونِها مِن أهل التَّقْوى[2]، والكَونُ نُظِم فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ لُزومَ طريقِ التَّقوى والمُتَّقينَ إنَّما يكونُ قبل مجيءِ العذابِ، في الزَّمان الماضي بالنِّسبة لزمان تعذيبِهم.

دلالةُ العدول مِن المفرد إلى الجمع:

لَمّا قالَتْ هذه النَّفْسُ: ﴿لَكُنتُ﴾؛ كانَ الظّاهرُ أن تقولَ: (مُتَّقيًا)، أو (مُتَّقيَةً)، أو (تَقيًّا)، أو (تَقيَّةً)، أو نَحوَ ذلكَ؛ بحيثُ يكونُ خبرُ الكونِ مفردًا، ولكنَّها عدَلَتْ عن ذلك إلى جعْلِ الخبرِ جمعَ مُذكَّرٍ

(1) الراغب، المفردات: (هدى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

سالِمًا، فـ: ﴿مِنَ﴾ معناها التَّبْعيضُ، والمعنى: لكنتُ واحدًا مِن المتقين وبعضَهم، والغرضُ مِن العدولِ الإبلاغُ في إثباتِ صفةِ التَّقوى لهذه النَّفْسِ، والمعنى: لكنتُ بعضَ المشهورينَ بهذه الصِّفة، الرّاسخينَ العريقينَ فيها، المُمَيَّزينَ بها، البالغينَ فيها أعلى مستوًى مِن مستوياتها، وهو مستوى الكُمَّلِ.

النَّفْسُ تُبالِغُ في الإعلامِ بالإقلاعِ عمّا جعلَها تُعذَّبُ ذلك العذابَ

دلالة حذف المُتعلَّقِ:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جمعُ: المُتَّقي، وهو اسمُ فاعلٍ، يعملُ عمَلَ الفِعْلِ، فمعمولُه محذوفٌ، قال أبو السُّعود: "﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ والمعاصيَ"[1]، ففي حذفِهِ إشارةٌ إلى عمومِه؛ إبلاغًا في تقريرِ اتِّصافِ النَّفْسِ بالتَّقْوى، على عادةِ المُعذَّبِ المقهورِ الَّذي يُبالِغُ في دَعْواهُ؛ لعلَّه يُخفَّفُ عنه.

المبالغةُ في الادِّعاءِ مِن شأنِ أهلِ الباطلِ

نكتةُ التَّقديم بين الأقوال:

وردَتْ أقوالُ النَّفْسِ الكافِرَةِ الثَّلاثةُ على جهةِ الصِّدْقِ، الذي دفَعَها إليه فجأةُ العذابِ، ومُشاهَدةُ الحقائقِ، ثُمَّ على جهةِ الكذِبِ، الذي لجَأَتْ إليه؛ لِما رُكِّبَ في طِباعِهِم مِن الكذبِ على اللهِ، فبقيَ ذلك فيهم، وهم في حالِ العذابِ؛ لذا فقد "حُكِيَ كلامُ النَّفْسِ في ذلك الموقفِ على ترتيبِه الطَّبيعيِّ في جولانِه في الخاطِرِ، بالابتداءِ بالتَّحسُّرِ على ما أوْقعَتْ فيه نفسَها، ثم الاعتذارِ والتَّنصُّلِ؛ طمعًا أنْ يُنجّيَها ذلك، ثم بتمنّي أنْ تعود إلى الدُّنْيا؛ لتعمل الإحسان، كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: 99 - 100]، فهذا التَّرتيبُ في النَّظْمِ هو أحْكمُ ترتيبٍ، ولو رُتِّب الكلامُ على خلافِه؛ لفاتَتِ الإشارةُ إلى تولُّدِ هذه المعاني في الخاطِرِ حينما يأتيهم العذابُ، وهذا هو الأصلُ في الإنشاءِ إلى تولُّدِ ما لم يوجَد ما يقتضي العدولَ عنه"[2].

ترتيبُ أقوالِ النَّفْسِ جاءَ على حَسَبِ استقبالِها العذابَ فرؤيتِها إيّاهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 47.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»